

عظة الجبل (متى ٥ - ٧)

الفصل الخامس : عظة الجبل، التطويبات



١ - الاستقبال

على جبل سيناء أعطى الله موسى الوصايا العشر، فاتحة الشريعة القديمة وخلصتها، وعلى الجبل علم يسوع التطويبات، فاتحة تعليمه وخلصته. الجبل هو المكان الجغرافي الأقرب إلى الله، مكان الوحي، ومكان اللقاء بين الله والإنسان. خطبة الجبل من أجل صفحات الكتب العالمية. قال آباء الكنيسة فيها إنها خلاصة الإنجيل، خلاصة الحياة المسيحية.

هل سبق أن قال أحدكم لك: «عفاك يا شاطر!»؟

على ماذا يهنيئ الناس بعضهم البعض؟ من الواضح أن يسوع يهنيئنا مبشراً إيانا من خلال التطويبات التي تقودنا إلى ملكوت الله. هل هذا أمر جديد بالنسبة إلى التعاليم اليهودية القديمة، أم إن هذا أمر جديد لا علاقة له بالماضي؟ هذا ما سنحاول شرحه اليوم من خلال تعليم يسوع في عظته الأولى من إنجيل متى.

٢ - قراءة الإنجيل وتفسيره

عظة الجبل، التطويبات (متى ٥ : ١ - ١٢)

١ فلما رأى الجموع، صعد الجبل وجلس، فدنا إليه تلاميذه^٢ فشرع يعلمهم قال:

٣ «طوبى لفقراء الروح فإن لهم ملكوت السموات. ٤ طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض. ٥ طوبى للمحزونين، فإنهم يعززون. ٦ طوبى للجوع والعطاش إلى البر فإنهم يشبعون. ٧ طوبى للرحماء، فإنهم يرحمون. ٨ طوبى لأطهار القلوب فإنهم يشاهدون الله. ٩ طوبى للساعين إلى السلام فإنهم أبناء الله يدعون. ١٠ طوبى للمضطهدين على البر فإن لهم ملكوت السموات. ١١ طوبى لكم، إذا شتموكم واضطهدوكم وافترؤا عليكم كل

كَذِبٍ مِنْ أَجْلِي، ١٢ اِفْرَحُوا وَاِبْتَهِجُوا: إِنَّ أَجْرَكُمْ فِي السَّمَوَاتِ عَظِيمٌ، فَهَكَذَا اضْطَهَدُوا
الْأَنْبِيَاءَ مِنْ قَبْلِكُمْ».

١.٢ - الشرح

تقول التطويبات إِنَّ الْمَلَكُوتَ نِعْمَةٌ: «طوبى» هِيَ تَعْبِيرٌ كِتَابِيٌّ تَقْلِيدِيٌّ (مز ١ : ١؛ مثل ٣ : ١٣؛
سي ٢٥ : ٨-٩) لِتَهْنِئَةِ شَخْصٍ أَوْ جَمَاعَةٍ بِخَيْرِ عَمِيمٍ قَبْلُوهُ أَوْ سَوْفَ يَقْبَلُونَهُ. وَيَسُوعُ يُهْنِئُ هُنَا مَنْ
اتَّصَفُوا بِالصِّفَاتِ الَّتِي تَوَهَّاهُمْ لِقَبُولِ مَلَكُوتِ اللَّهِ.

فِي التَّطَوِّبَاتِ، نَلَاحِظُ «إِحَاطَةَ» بَيْنَ التَّطَوِّبَةِ الْأُولَى وَالثَّامِنَةِ إِذْ تَتَكَرَّرُ عِبَارَةٌ «لَأَنَّ هُمْ مَلَكُوتِ
السَّمَوَاتِ» (٥ : ٣ و ١٠). وَهُنَاكَ أَنَاثُ مُطَوَّبُونَ مِنْ أَجْلِ الْبِرِّ مَرَّتَيْنِ (٥ : ٦ و ١٠). وَالتَّطَوِّبَةُ
التَّاسِعَةُ (٥ : ١١-١٢) تَحْوِي عَلَى مَضمُونِ الثَّامِنَةِ لَكِنَّ الْإِنْتِقَالَ مِنْ صِيغَةِ الْغَائِبِ إِلَى صِيغَةِ
الْمُخَاطَبِ يُلْقِي وَقَعَهُ عَلَيْنَا بِطَرِيقَةٍ مُبَاشِرَةٍ!

تُقَسِّمُ التَّطَوِّبَاتِ الثَّمَانِيَةَ إِلَى قِسْمَيْنِ: الْأَرْبَعِ الْأُولَى (متى ٥ : ٣-٦) تَتَرَكَّزُ حَوْلَ الْفَقْرِ / التَّوَاضُعِ
وَالْمَوْقِفِ أَمَامَ اللَّهِ. أَمَّا الْأَرْبَعُ الْآخَرَى (متى ٥ : ٧-١٠) فَتَتَرَكَّزُ حَوْلَ الْمَوْقِفِ مَعَ الْآخِرِ. وَالْآخِرَةُ
تُذَكِّرُ بِمُزْمُورِ «الرَّبُّ رَاعِيٌّ... عَصَاكَ وَعُكَاظُكَ هُمَا يُعْزِيَانِي».

وهذا هو معنى كُلِّ تَطَوِّبَةٍ عَلَى حِدَى:

فُقَرَاءُ الرُّوحِ هُمُ الَّذِينَ لَا يَتَنظَرُونَ شَيْئًا مِنَ النَّاسِ أَوْ مِنْ ذَوَاتِهِمْ إِنَّمَا يَضَعُونَ كُلَّ اتِّكَاظِهِمْ عَلَى اللَّهِ.
إِنَّ زِيَادَةَ كَلِمَةِ «رُوح» عِنْدَ مَتَّى تُرَكِّزُ عَلَى الْمَيِّزَةِ الدِّينِيَّةِ الرُّوحِيَّةِ دُونَ أَنْ تُلْغِي الصَّبِغَةَ الْاِقْتِصَادِيَّةَ
الاجْتِمَاعِيَّةَ.

الْوَدِيعُ هُوَ الَّذِي يَعِيشُ الطِّفْلَةَ الرُّوحِيَّةَ. تَقُومُ الْوَدَاعَةُ عَلَى إِنْكَارِ الذَّاتِ، وَاتِّضَاعِهَا، وَالْإِبْتِعَادِ
عَنِ الْإِنْتِقَامِ وَالْغَضَبِ. هِيَ لَيْسَتْ ضَعْفًا بَلْ قُوَّةٌ فِي السَّيْطَرَةِ عَلَى الذَّاتِ، وَضَبْطِ النَّفْسِ، وَالتَّسَامُحِ
وَالتَّوَاضُعِ.

إِطَارُ الْحُزْنِ هُوَ الْاضْطِهَادَاتُ الَّتِي عَانَاهَا الْمَسِيحِيُّونَ الْأَوَائِلُ. يُطْمِئِنُّ الْمَسِيحُ كُلُّ الْمَحْزُونِينَ
بِمَجِيئِ زَمَنِ التَّعْزِيَةِ الْإِسْكَاتُولُوجِيَّةِ (أش ٤٠ : ١؛ ٦١ : ٣). فَالتَّعْزِيَةُ تَعْنِي الْقُوَّةَ وَالتَّشْجِيعَ
وَالرَّجَاءَ لِمُوَاجَهَةِ الْمَشَقَّةِ.

كلمة «البر» تعني إرادة الله. في برية سيناء كان طعام المن والسلوى عطية من الله. طوبى لمن يجوع ويعطش لكلام الله، فيرتوي من شريعته، من الماء الحي، ومن خبز السماء، فيرتنم «الرب راعي فلا يعوزني شيء».

أعمال الرحمة هي أعمال حسنة: مُسَاعَدَةُ الْجَائِعِ وَالْعَطْشَانَ وَالْعُرْيَانَ وَالْمَرِيضَ وَالسَّجِينَ وَالْغَرِيبَ. إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ لَنَا مَشْرُوطَةٌ بِعَمَلِنَا لِلرَّحْمَةِ: اغْفِرْ لَنَا كَمَا نَحْنُ نَغْفِرُ لِمَنْ خَطِيئَ إِلَيْنَا.

كتابياً، لا يدلُّ القلبُ على العاطفة فقط، إنما هو مركزُ الذاتِ حيثُ يعودُ الإنسانُ إلى نفسه فيتحمَّلُ مسؤولياته. فالقلبُ الطاهرُ هو المحرَّرُ من الازدواجية والحُبث، فيشاهد الله لا في المظهر إنما في الدَّاخلِ.

لا تعني الكلمة العبرية «شالوم» السلام السياسي فقط إنما أيضاً كلُّ الخيور (الخيرات) المادية والروحية. صانعُ السلام هو صانعُ التفاهم والوفاق؛ سيدعى ابناً لله أي من ذاتِ هويته التي أعلنت مع الملائكة يوم ميلاده (لو ٢: ١٤).

موضوع التطويتين الثامنة والتاسعة هو الاضطهاد الذي قد يكون عملياً (طرد، سجن، قتل) وأدبياً (الازدراء، الانتقاد اللاذع، الافتراء). حذارٍ من اضطهاد الآخرين! لكن علينا أن نعرف أن الاضطهاد ليس أمراً استثنائياً أو نوعاً من ظرف زمانٍ أو مكانٍ مُعيَّنين. الاضطهاد، بحسب يسوع، هو حالة حياة كلِّ المؤمنين الذين ينخرطون بمشروع الله. فالضميرُ المخاطب «لكم» (متى ٥: ١١) لا يعني التلاميذ فقط إنما كلُّ المسيحيين على مرِّ الأجيال.

٢.٢ - التَّوِين

من الممكن أن تُختصر رسالة التطويات في ثلاثة محاور:

أ- التطويات هي بالدرجة الأولى أفعال إعلان «Indicatif» تُعطي قيمة لبعض الفئات غير الهنيئة، مُغيِّرةً بذلك حكمة العالم. ليس واقِعهم المُحزَنُ الفقيرُ هو الذي يجعلهم هنيئين، إنما الملكوت يقبُّ المقاييس الإنسانية والعالمية المعروفة رأساً على عقب، إذ تتجلى من خلاله حكمة الصليب والقيامة.

ب- التطويات هي ثانياً أفعال تُلزم الربَّ بتحقيق ما وعد به إذ أن الأفعال عامَّة في المقطع الثاني من كلِّ طوبى هي في صيغة المجهول الإلهي (يُعزَّون، يُشبعون). فالله ليس من دون لَوْنٍ،

ولا يَتَفَرَّجُ دُونَ حِرَاكِ، بَلْ هُوَ يُدَافِعُ دَائِمًا عَنْ مُحِبِّهِ.

ج- والتطويبات هي ثالثاً أفعال أمر للإنسان، دون أن تكون في صيغة الأمر، تطلب من القارئ أن يتصرف بحسب الملكوت مع العلم أن الأفعال هي في صيغة الـ «Indicatif». وهذا مفهوم في الفكر السامي لأن التطويبات من الثانية إلى السابعة هي في صيغة المستقبل، ومعروف أنه في العربية/ العبرية لا مستقبل إنما مضارع تحت شكلين حاضر ومستقبل. ليس الله فقط هو المسؤول عن التحقيق إنما أيضاً على الإنسان أن يساعد الله في خلاصه.

٣- التعليم اللاهوتي والروحي: ملكوت الله

لقد خلق الله الإنسان ليشاركه في حياته، أي في محبته وفرحه. لذلك يتوق الإنسان من أعماق قلبه باحثاً عن الحياة وعن الحب وعن الفرح. لكن خطيئة الإنسان ومآسي هذه الدنيا تزرع فيه الحزن بدل الفرح، والبغض بدل الحب، والموت بدل الحياة. أما الله فهو لا يترك خليقته، لذلك أقام أنبياء ومعلمين وسط شعبه ليوقظوا الوعد بالملكوت الآتي.

فهم معظم الناس في العهد القديم أن المسيح الآتي سيحقق ملكه مثل سائر ملوك الأرض. لهذا السبب أراد يسوع التذكير مراراً، وبطرق متنوعة أن ملكوته ليس من هذا العالم. أي إنه لا يشبه طريقة الناس بالحكم، ولا يسعى للمال وللحروب والاحتلالات.

ملكوته ليس من هذا العالم ولكنه ينطلق منه. قال يسوع: «إن ملكوت الله في داخلكم». أي حين يسود الله على أفكاركم وقلوبكم، وحين تفتحون على دعوة الله لكم، حينئذ ستذوقون طعم السماء، من الآن، لأن محبة الله ستخلص نفوسكم. ولكن، طبعاً، بما أن الإنسان يعيش هنا، لن يمكنه أن يكون كلياً لله، لذلك فملكوت الله الحاضر منذ الآن لن يكتمل إلا في السماء، في الحياة الجديدة عند الله، حيث يصبح الله كلاً في الكل.

أعطى يسوع شرعة الملكوت في إنجيله، وهي تشير إلى اكتمال وعود الله التي أعطيت في العهد القديم، ولكن بطريقة فريدة وكاملة. لقد تخطى تحقيق الوعد بيسوع كل الانتظارات.

- للقراءة والتأمل: ق م القيس أوغوسطينوس (+)

الجمال القديم

لقد أحببتك متأخرًا، أيها الجمال القديم، الحديث، أجل متأخرًا أحببتك. أنت كنت في داخلي وأنا خارج عن نفسي. وفي الخارج بحثت عنك طويلًا، ووثبت في قباحتي نحو الجمالات التي كوَّنتها. أنت كنت معي وأنا لم أكن معك. واستوقفنتني بعيدًا تلك الأشياء التي لولا وجودها فيك لما كان لها وجود. دعوتني وصرخت بي، فانتصرت صوتك على صممي وسطع نورك فبدد عمائي وفاح أريجك فتشقتته، وها إنني إليك أتوق، وذقتك فجعنت وعطشت إليك، فمسستني فاتقدت شوقًا إلى سلامك.

حين أجد بك، بكليتي، أفقد كل شعور بالألم والتعب، وتمتلئ حياتي منك، وتصبح حياةً صحيحة. أنت تخفف عن كاهل مَ تملأه، وأنا الآن لست مُمتلئًا. ولهذا فإني أثقل على ذاتي. إن أفراحي التي أبكيها تقاوم أحزاني التي بها أغتبط. ولمن النصر؟ لا أعلم...

أواه! ترأف بي أيها الرب، أنا الفقير. أنظر إلى قروحي، فها هي مكشوفة لديك. أنت الطبيب وأنا المريض، أنت الرحيم وأنا الشقي؛ أليست حياة الإنسان على الأرض امتحانًا؟ ومن يبغى المشاكيل والصعوبات؟ تأمر الإنسان بأن يتحملها لا بأن يحبها. لا أحد يحب ما يتحمل، وإن أحب أن يتحمل. وإن اغتبط الإنسان بحمله، فيظل يفضل ألا يتحمل شيئًا. في ضيقي أبغى سعادتي، وفي سعادتي أخاف من الضيق. وهل من حل وسط بين هاتين الحالتين، حيث لا تكون حياة الإنسان تجربة؟

رجائي كله في رحمتك الواسعة. هب ما تأمر به، ومز بما تريد... قلما يُحبك من يشرك في حبك آخر، لأنه لا يُحبك من أجلك. أيها الحب الذي يشتعل دومًا ولا ينطفئ أبدًا. يا إلهي، أيها المحبة، أشعلني!

(اعترافات، ١٠)

